الفنقلةُ عند الزمخشري بين الدّلالةِ والحِجَاج

أ.م.د. عادل راضي جابر الرفاعي

الملخص:

مما لا شكَ فيه أن القارئ لتفسير الكشاَف للزمخشري تطالعُهَ تلك التراكيب المتوالية المتمثلة بمقولة (فإن قُلتَ: قلتُ) والتي شكلت ظاهرةً دلاليةً بارزةً تناول صاحبها الأنساق القرآنية في أسلوب منفرد يضرب في عمق اللغة والبلاغة. هذا الأسلوب أثار لدينا خاصية الربط بالحجاج بوصفهِ أسلوباً إقناعياً ولم يكن حجاجاً بين شخصين أو أكثر بل حجاجٌ بين المرء وذاته،حجاجٌ بين المؤلف وتحليله.

إن هذه المادة وآلية استخدامها لدى جار الله الزمخشري شكلت ما يسمى بالفنقلة بوصفها مصطلحاً منحوتاً من التركيب (فإن قلتَ: قلتُ) دُرِسَتْ من خلال علاقتها بالحجاج الذاتي أو الداخلي وقد أفضيا إلى هذا البحث الموسوم بـ (الفنقلة بين الدلالة والحجاج).

المقدمة:

إنَ أيَ باحثٍ يتعمق في قراءة تراث جار الله الزمخشري (ت٥٣٨هـ) وينعم النظر في سطور مؤلفاته يتبدّى له الأسلوب المميز الذي ينفردُ به صاحب الكشاف والأساس، حيث الاهتمام بدلالة الألفاظ والتراكيب والوقوف على حالة السياق وطريقة النظم فيه سائراً بذلك على خُطى عبد القاهر الجرجاني في الدلائل متأثراً به الى حدً الى كبير(١).

وحينما قرأت تفسير الكشاف للزمخشري لفت نظري استخدامه لعبارة (فإن قُلتَ كذا: قُلتُ كذا) فانطلقتُ اتقصى مواردها في التفسير حتى غدت لي جذوةً أوقدت همّةَ البحث والتحليل فكوّنت لي مادةً حريةً بالدراسة ربطتها ربطاً منطقياً بالحجاج الذاتي بوصفهِ أحد الأساليب التي تميز بها الزمخشري دون أقرانه.

لقد كانت التحليلات المنطقية و التخريجات البلاغية للآليات الكريمات سبباً في بروز(الفنقلة) بوصفها ظاهرةً مشرقةً أردتُ من خلالها رفدَ الدراسات الخاصة بالأعجاز والنظم القرآني.

لقد كانت دراستي محاولةً لاستثمار المصطلح المنحوت والمتوفّر في تفسير الكشاف وهو في حقيقته توظيف دلالي. حجاجي يعتمد على ثنائية (السؤال والجواب) وغالباً ما يكون الجواب خوضاً في الدلالة والنظم والبلاغة وتبياناً لمجال الأنساق القرآنية التي ترتقي على أسلوب البشر في الشعر والنثر.

بُني البحث على مبحثين:الأول في الفنقلة في النسق والنظم واشتمل على الفنقلة في المفردات والتراكيب و الفنقلة في الانزياح الأسلوبي.

والمبحث الثاني جاء في علاقة الفنقلة بالحجاج من خلال الدلالات الثانوية في الألفاظ والتراكيب ثم ختمتُ البحث بأهم النتائج التي توصلت إليها.

المبحث الأول

الفنقلة في النّسقِ والنّظم:

لقد حرص الزمخشريَ على نقل قضية الاعجاز القرآني في النسق والنظم من الجانب النظري الى الجانب التطبيقي التحليلي،بل أراد أن يجعل النصَّ القرآني برمّتهِ مجالاً للناظرين والباحثين عن الذوق البلاغي والأسلوبي.

الفنقلة اللفظية:

لم يكن اختيار المفردة القرآنية اختياراً عشوائياً ولم يكُ ضرباً من الرصف والترصيف وإنما يُصار الى انتقاء اللفظة مراعاةً للسياق الذي تردُ فيه وهذا ما أبرزه الزمخشري في فنقلاته، إذ يتمثل النظم لديه بمثابةِ السدى يتحلّل لحمة النسيج العام حيث يحرر بحثه الدلالي تحرير المتعمق المدقق للمادة اللغوية بشكل تكاملي يسلّطُ الضوءَ فيه على علاقاتها بنظيراتها وجاراتها من الألفاظ.

قال تعالى: "وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى

جَهَنَّمَ زُمَرًا "(الزمر٧١).

وقال تعالى: "وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا "(الزمر ٧٣).

يقول منتظماً في طريقة الفنقلة – "فإن قُلتَ كيف عبر عن الذهاب بالفريقين بلفظ السوق؟ قُلتُ: المرادُ بسوق أهل النار طردهم إليها بالهوان والعُنف، كما يُفعلُ بالأُسارى والخارجين على السلطان إذا سيقوا إلى حبسٍ أو قتل. والمرادُ بسَوقِ أهل الجنة: سوق مراكبهم، لأنَهُ لا يُذهب بهم إلا راكبينَ وحثها أسراعاً بهم إلى دار الكرامة والرضوان كما يُفعلُ بمن يُشرف ويُكرمُ من الوافدينَ على بعض الملوك فشتانَ بين السوقين(٢).

إن لتباين الدلالتين تأثيراً في النفس حيثُ إن السَوقَ في الإيعاد والتخويف ليسَ كالسوق في التكريم والترحاب وبذلك يكونُ مجيء اللفظة ملائماً للسياقِ الذي وردت فيه.

ومن الجماليات النظمية – ها هنا – ذلك الجرس اللفظي الذي توحي به لفظة (سِيقَ) فهناك الانسجام الصوتي الذي حاكى الانسجام النظمي من حيث تجاور السين والياء في مخارجهما والانتماء بصوتٍ ينطق بعملية السَوق. هذه الخاصية الصوتية يتميز بها النص القرآني حيث تجد ألفاظَهُ خفيفةً على الاسماع طيبة الذوق عند النطق بها وأن كلام الله سبحانه وتعالى حائزٌ على هذه الخصال التي يتميز بها على سائر الكلام(٣).

كما أن بناء لفظة (سيق) للمجهول كان الغرضُ منه الايحاء بالفظة والقدرة فضلاً عن إثارة مكامن الشوق لدى القارئ للبحث عن ماهية السائق وصفتهِ وقدرتهِ.

ومثيلهُ قولهُ تعالى "وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ "(هود ٤٤).

إذ يرى الزمخشري أن سبب مجيء الإخبار على الفعل المبني للمفعول للدلالة على الجلالِ والكبرياءِ، وأن تلك الامور العظام لا تكونُ إلا بفعلِ فاعلٍ قادر، وتكوين مكون قاهر، وأنَ فاعلَها فاعلٌ واحدٌ لا يُشاركُ في أفعاله، فلا يذهبُ الوهمُ إلى أن يقولُ غيرهُ: يا أرضُ أبلعي ماءكِ ويا سماءُ أقلعي، ولا أن يقضي ذلك الامر الهائل غيرُهُ،ولا أن تستوي السفينةُ على متنِ الجودي وتستقر عليه إلا بتسويتهِ وإقراره (٤).

أنعم النظر في جمالية النظم الذي تتآخى فيه الألفاظ بالتلاصق أو المجاورة،حتى ترتبط المفردات مع بعضها لتخلق حالةً محمودةً من النظم،فالحسن والشرف لا يتأتى لألفاظ الآية إلا من حيث تلاقي الأولى بالثانية، والثالثة بالرابعة، الى أن تستقر بها إلى آخرها.تأمل ألفاظ الآية،وخُذ إحداها من بين أخوتها،ثُم أفردها،فهل تؤدي من الفصاحة ما تؤديه وهي في مكانها من الآية؟ قُل (أبلعي) واعتبرها وحدها من غير أن تنظر إلى ما قبلها وما بعدها تجد أنها تُعطيك معنى أعزل لا يُضاهي معناها حينما تحاطُ بأخواتها(٥).

ويتساءلُ الزمخشري تساؤل المحلل الناقد عن سبب أختيار لفظة (خائنة) دون سواها في قوله تعالى:"يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ"(غافر ١٩).

يقول: "إن الخائنة صفةٌ للنظرة ومصدر بمعنى الخيانة كالعافية بمعنى المعافاة، و المراد: استراق النظر غلى ما لا يحل،كما يفعل أهلُ الريب ولا يحسُ أن تُراد الخائنة من الأعين، لأن قولهُ تعالى: "وما تُخفى الصدور "لا يساعد علية. فإن قلتُ: بمَ أتصل يعلم خائنة الاعين ؟ قُلتُ: هو خبر من الاخبار كما في قولة تعالى: "هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ " (غافر ١٣)(٦).

إنَ لفظة (خائنة) قد تكون كثيرة الاستعمال لا تجذب القارئ كون دلالتها مفهومةً تُفضي الى عدم الالتزام بأداء الأمانة والحفاظ عليها. لكن التوظيف القرآني لها اتسم بالتميز في الدلالة من حيث إضافتها إلى (الأعيُن) ليكسبها دلالةً جديدةً تُخرجها من الحالة الوصفية الى الحالة الإبداعية، فهي سهلة مستعملة كثيرة الجريان على ألسن الناس ولكن على انفرادها،فلما أضيفت إلى (الأعيُن) حصل لها من غرابة التركيب ما حصل لها في النفوس هذا الموقع العظيم، بحيث لا تستطاع الإتيان بمثلها ولا يكاد يقع في شيء من فصيح الكلام شبهها(٧).

وجديرٌ بالتنويه أن مجيء لفظة (خائنة)على وزن (فاعل) وبصيغة الاسم فيه دلالة على ثبات المعنى وقوته(٨) على دلالتها لو جاء على صيغة الفعل (ما تخون الاعين) حيث تفقد حالة الاستقرار والثبات وهذا شأن الأفعال التي تتسم بحالة التغيّر في الدلالة تبعاً لزمنيتها.

وتتفق المخيلة الدلالية لدى جار الله الزمخشري فيما يستعرض أسلوبه (الفنقلة) في قوله تعالى: "يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ

"(الحج:٢).

يقول: فإن قُلتَ: لم قيل: مُرْضِعَة دون مُرضع ؟ قُلتُ: المرضعة التي هي في حال الإرضاع ملقمةٌ ثديها الصبيَ. والمرضع مُن شأنها أن تُرضع وإن لم تباشر الارضاع في حال وصفها به فقيل: مرضعة، ليدل على أن ذلك الهول إذا فوجئت به وقد ألقمت الرضيع ثديها نزعتهُ عن فيه لما يلحقها من الدهشة (عما أرضعت) عن إرضاعها حيث تذهل المرضعة عن ولدها لغير فطام،وتضع الحاملُ ما في بطنها لغير تمام... وتراهم سُكارى على التشبيه وما هم بسكارى على التحقيق ولكن ما رهقهم من خوف عذاب الله هو الذي أذهب عقولهم وطير تمييزهم وردّهم في نحول حال من يذهب السكرُ بعقلِه وتمييزه. وقيلَ:وتراهم سُكارى من الخوف وما هم بسُكارى من الشرابِ. فإن قُلتَ: لمَ قيل أولاً:ترونَ، ثم قيل: ترى على الافراد ؟ قُلت: لأن الرؤية أولاً علقت بالزلزلة فجعل الناس رائين لها(٩).

إن قراءةً زمنيةً لهذا النص القرآني تُنبؤك بهذا التآزر بين الأفعال والأسماء،ألا ترى إن تتابع الازمنة والدلالة المخفية في الافعال قصداً وأعجازاً (ترون، تذهل، أرضعت، تضع) ترى مجيء هذه الأفعال أعطى حركة وتغييراً في دلالات السياق كما أن مجيء لفظة (سكارى) والتذكير أعطى بعداً وسعةً في القصدِ.حيث إن السكران:خلاف الصاحي،والسكرُ نقيض الصحو. وقُرئت: سكرى على وزن (فَعلَى) مثل مرعى وحمقى.وسكرة الموت: شدتُهُ. وسكرة الميت:غشيتهُ التي تدل الانسان انه ميت(١٠).

أما أختيار لفظة (أسرَّوا) فلَهُ الاثر المميز بالتأثير في قوله تعالى "لاهيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّواْ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلْ هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ "(الانبياء: ٣)

يقول متسائلاً بالفنقلة لثلاث مرات متتالية: فأن قُلت: النجوى وهي أسم من التناجي لا تكونُ إلا خفيةً فما معنى قولة (وٌ أسروا) ؟ قلت: معناه و بالغوا في أخفائها أو جعلوها بحيث لا يفطن أحد لتناجيهم ولا يعلم أنهم متناجون... فإن قلت: لمَ أسروا هذا الحديث وبالغوا في إخفائه ؟ قلتُ: كان ذلك شبه التشاور فيما بينهم،والتحاور في طلب الطريق الى هدم أمره.. فإن قلت: هلاَّ قيل: يعلمُ السر لقولة (وأسروا النجوى) قلت: القولُ عامٌ يشمل السر والجهر ؟ فكان في العلم به العلم بالسر وزيادة،فكان آكد في بيان الاطلاع على نجواهم من أن يقول:يعلمُ السر، كما أن قوله:يعلمُ السر،آكد من أن يقول: يعلمُ سرهم(١١).

يُلاحظ في هذا النص أن الزمخشري أراد أن يضع القارئ في موقف تفكير وتدبير في ماهية المفردات القرآنية وذلك بتساؤلاته الحوارية تارة والحقيقية تارة أخرى بطريقة يتقصى فيها صفتي الدقة والجمال مستخدماً حجاجاً دلالياً ليخدم فكرته القائمة على إثارة ذهنية المتلقي من خلال تتابع الاستفهامات بطريقة (الفنقلة).

ليكون الجواب عنها إماطةً عن الدهشة الذي تصيب قارئ النص وترسّخُ حالة الإعجاب لدية بالنص وقضايا الاعجاز البلاغي فيه لو تأملت النظر في (لاهيةً قلوبُهم وأسرَّوا النَّجْوى) لتجّلى لك أن اللغة الاستعارية غلبت اللّغةَ الوضعية فالقلوب تلهو كما يلهو التائهُ والنجوى تستحيل إلى أداةٍ للسر بينما يطرق السمع أن المناجاة لا تكون إلا سرّاً. إن هذا التحالف الدلالي بين اللفظة وتخطيها لمعانيها الأولِ يثبت بشكل فعلي أن التغيرات في النص لا تأتي دون تخطيط إعجازي بحيث أكسبت المعنى طريقاً نزهاً جديداً استقى جمالية من التركيب جميعه.

ثم تترى الفنقلات بشكل تتابعي في قولة تعالى : "الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا "(الكهف:١-٢)

فإن قلت: ما فائدة الجمع بين نفي العوج وإثبات الاستقامة، وفي أحدهما غني عن الآخر؟ قلتَ: فائدتهُ التأكيد قرب مستقيم مشهود لهُ بالاستقامة و لا يخلو من أدنى عوج عند السبرِ و التصفح. وقيل: قيماً على سائر الكتب مصدقاً لها، شاهداً بصحتها. وقيل: قيماً بمصالح العباد و ما لابُد لهم منه من الشرائع... فإن قلت: لمَ أقتصر على أحد مفعولي أنذر ؟ قلتُ: جعل المنذر به هو الغرضُ المسبوق إليه،فوجب الاقتصار علية... فإن قلت: أتخاذ الله ولداً في نفسه محالٌ فكيف قيل: ما لهمُ به من علم ؟ قلتُ: معناهُ ما لهم به من علم ،لأنه ليٌس مما يعلم لاستحالته وانتفاء العلم بالشيء إما للجهل بالطريق الموصل إلية،وإما لأنه في نفسه محال لا يستقيم تعلق العلم به(١٢).

وفي موقع آخر يبين الزمخشري عظمة الاختيار القرآني ودقته لاستخدام (غير صالح) بدلاً عن لفظة (فاسد) على الرغم من كون الثانية أوجز وأشبه للأولى

في الدلالة في قولة تعالى: "وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ "(هود ٤٥-٤٦).

فإن قلت فهلا قيل: إنه عملٌ فاسدٌ ؟ قُلْتُ: لما نفاهُ عن أهله،نفى عن صفتهم بكلمة النفي التي يستبقي معها لفظ المنفي، وآذن بذلك أنه إنما أنجى من أنجى من أهله لصلاحهم،لأنهم أهلك وأقاربك، وإن هذا لما أنتفى عنهُ الصلاح لم تنفعهُ أبوتك... فإن قلت: لَم سُمي نداؤهُ سؤالاً ولا سؤال فيه ؟ قلتُ: قد تضمن دعاؤه مُعنى السؤال وإن لم يصرح به،لأنهُ إذا ذُكر الموعد بنجاة أهله في وقت مشارفة ولدة الغرق فقد أستنجز وجعل سؤالاً لما لا يعرف كُنههُ جهلاً وغباوةً، ووعظهُ أن لا يعود إلية وإلى أمثاله من أفعال الجاهلين. فإن قلتُ: قد وعدهُ أن أبنه ليس منهم ديناً،فلما أشفى على الغرق تشابه عليه الامر،لأن العدة قد سبقت له وقد عرف الله حكيماً ولا يجوز له الفعل القبيح وخلف الميعاد، فطلب إماطة الشبهه... فَلَمَ زُجر وسمي سؤاله جَهلاً ؟ قلتُ: إن الله عز وعلا قدم لهُ الوعد بأنجاء أهله مع استثناء من سبق عليه القولُ منهم،فكان عليه أن يعتقد أن في جملة أهله من هو مستوجب للعذاب لكونه غير صالح، وأن كلهم ليسوا بناجين، وان لا تخالجه شبههٌ حين شارف ولدهُ الغرق في أنه من المستثنيين لا من المستثنى منهم،فعوتب على أن أشتبه عليه ما يجب أن لا يُشتبه(١٣).

إن لفظة (غير صالح) لو(استبدلت) بما أوجز منها مثل(فاسد أو قبيح) لتَبدّلَ المعنى المقصود، و ذهبت تلك الدلالة وانتفى ذاك الرونق الذي يصاحب ذهابه ما يسميه الخطّابي بالسقوط البلاغي(١٤). إذ يلمح المعنى المتأتي من التضايف بين (غير وصالح) والمؤدي الى التفكر بنقيضه هو(الصالح) وكأن التركيب الاضافي احتث الفكر لأستحصار الدلالة الايجابية لصفة الصلاح وبذلك يكون (غير صالح) أدخلُ في البلاغة وأنفذ للمقصود.

ومن معزّزات الملمح الدلالي الذي اثارَتهُ فنقلة الزمخشري وتساؤلاته هو الانتقال المجازي في الدعاء حيث وروده على صيغة السؤال والاستخبار ولا حقيقة كذلك وإنما هو ابتهالٌ وتوسّل لكّن النص القرآني يتميز تلك التوسعة التي يؤديها المجاز ولما كان لكل مجاز حقيقة وهو فرع منها(١٥). فهذا يؤسّس إلى أن الحقيقة هي الدعاء وقد مازجها السؤال لتوفر حالة التجوز نتيجة التعبير الذي تلابست به الحقيقة ببعضها البعض(١٦).

وقد يقع الاختيار على المفردة القرآنية بصيغة المفرد لسبب بلاغي، حيث أبرز الزمخشري أهمية ذلك كما في قوله تعالى:"قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ "(المؤمنون ١-٢).

وقوله تعالى: "وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ "(المؤمنون ٩).

فإن قلت: كيف كرّر الصلاة اولاً وآخراً ؟ قلتُ: هما ذكران مختلفان فليس بتكرير، وصفوا أولاً بالخشوع في صلاتهم،وآخر بالمحافظة عليها.وذلك لان لا يسهوا عنها،ويؤدوها في اوقاتها ويقيموا أركانها ن ويوكلوا نفوسهم بالاهتمام بها وبما ينبغي أن تتم به أوصافها.

وأيضاً فقد توحدت أولا ليفاد الخشوع في جنس الصلاة أي صلاة كانت، وجمعت آخر لتُفاد المحافظة على أعدادها(١٧).

حينما يكون الحديث عن جمع المؤمنين فالمطّرد أن تتواكبَ الألفاظ لتصف هذا الجمع في شكل جموع قلة أو كثرة أو جمع سالم وغيره،لكن للسياق القرآني خاصية سماويةً فمجيئها مفردة في الآيتين يُعطي معنى مكشفاً للخشوع وأداءً ممنهجاً في الحفاظ عليها وهذا مالا يتوفر لو جيء بها بصيغة الجمع.

ويتساءل الزمخشري محاججاً بشكل حوارٍ ذاتي عن سبب مجيء (شجرة) بالمفرد دون (شجر) ومجيء (أقلام) دون (قلم) لينبئ القارئ فقوله: فإن قُلتَ: كان مقتضى الحال أن يُقال: ولو أن الشجر أقلام والبحر مداداً. قلت: أغنى عن ذكر المداد قوله: يمدهُ،لأنه من قولك: مدَ الدواة وأمدها،جعل البحر الأعظم بمنزلة الدواة وجعل الأبحر السبعة مملوءةً مداداً، فهي تصب فيه مداداً أبداً حباً لا ينقطع... فإن قلتَ: لمَ قيل (من شجرةٍ) على التوحيد دون أَسم الجنس الذي هو شجره ؟ قلت: أريد تفصيل الشجر وتقصيها شجرة شجرة، حتى لا يبقى من جنس الشجر ولا واحدة إلا وقد بُريت أقلامها.

فإن قلت: الكلمات جمع قلة، والموضع موضع التكثير لا التقليل. فهلا قيل: كلم الله ؟ قلت: معناه أن كلماته بكتبتها البحار، فكيف بكلمه ؟(١٨).

ولم يكن مجيء اللفظة في النص القرآني مجيء تكثيرٍ وترصيف وانما هناك حسبانٌ نظمي، تبرزه تلك الوشائج العلائقية التي تشكل رابطةٌ متآخيةٌ بين الالفاظ ودلالتها من جانب، والألفاظ

وأخواتها من جانب آخر، أنظر الى استخدام لفظة (يقبضن) دون (قابضات) في قولة تعالى: "أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ" (الملك:١٩).

يتساءل الزمخشري فإن قُلتَ: لمَ قيل: ويقبضن ولم يقل قابضات؟ قلتُ: لأن الاصل في الطيران هو صف الاجنحة،لأن الطيران في الهواء كالسباحة في الماء،والأصل في السباحة مدُ الاطراف وبسطها. وأما القبض فطارئ على البسط للاستظهار به على التحرك فجيء بما هو طار غير أصل بلفظ الفعل، على معنى أنهنَ صافات، ويكون منهن القبض تارةً كمن يكون من السابح (ما يمسكهن إلا الرحمن) بقدرته وبما دبر لهن من القوادم والخوافي(١٩).

أن ورود (يقبضن) بصيغة الفعل دون الاسم (قابضات) لما فيه تركيبة الفعل الموحية بالحركة والاستمرار وكلاهما يواكب آلية الطيران عند الطير وهذا ما يستدعيه السياق بينما لو قال (قابضات) فإنها تُعطي دلالة الثبات والاستقرار وهذا ما لا يستدعيه موضع المقام القرآني المفعم بالحركة والدال على رفيف الطيور وحريتها. ومثيله قولة تعالى: " اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ "(ص:١٧-١٨).

يقول جار الله: فإن قُلتَ: هل من فرقٍ بين يُسبّحن ومسبّحات؟ قلت: نعم، وما اختير يُسبحن على مسبحات إلا لذلك، وهو الدلالة على حدوث التسبيح من الجبال شيئاً بعد شيء وحالاً بعد حال، وكأن السامع حاضر تلك الحال يسمعها تُسبح(٢٠).

كما يتساءل الزمخشري عن سبب مجيء لفظة (أعين) دون (عيون) في قوله تعالى: "وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا "(الفرقان:٧٤).

يقول الزمخشري: فإن قلت: لم قال (قُرة أعينٍ) فنكر، وقلّل؟ قلت: أما التنكير فلأجل تنكير القُرة، لأن المضاف لا سبيل إلى تنكيره إلا بتنكير المضاف إليه، كأنهُ قيل: هب لنا منهم سروراً وفرحاً. و أنما قيل (أعينٍ) دون عيون، لأنه أراد أعين المتقين،وهي قليلة بالإضافة الى عيون غيرهم(٢١).

الفنقلة والانزياح الدلالي:

اعتاد القارئ في مطالعته المنصوص على قراءة رتيبة ترتكز على إيلاء العمدات من الالفاظ موقعاً متقدماً وكأنها اختصت بموضع ثابت لا تدافع فيه ولا تغاير، لكن النص القرآني امتاز برصانة دلالية وتبادلٍ بالوظائف المكانية مع بقاء صفة البلاغة والتألق السياقي من خلال الانزياح الدلالي(٢٢).

ويمكن تتبع ذلك من خلال الوقفات التحليلية التي أبرزها جار الله الزمخشري لجمالية هذا الأسلوب ودوره في أكساء التراكيب حالة من المرونة والحيوية. فتقدم ما حقه التأخير وتأخر ما حقه التقديم وفق نظام رتيب محسوب رُعيت فيه كل القواعد اللغوية والخواص العلائقية وقد يكون الانزياح في المعنى والدلالة مع تأخر اللفظة لكن المسوغ هو العناية أو المنزلة أو الرتبة أو السياق. ويمكن تلمس ذلك في فنقلات الزمخشري أزاء النصوص القرآنية.

قال تعالى: فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ "(الأنبياء:٧٩).

يقول الزمخشري مستخبراً: فإن قُلتَ: لمَ قُدمت الجبال على الطير؟ قلتُ: لأن تسخيرها وتسبيحها أعجبُ وأدل في القدرة وأدخل في الاعجاز،لنها جمادٌ والطير حيوان، إلا أنهُ غير ناطق.روي أنه كان(٢٣) يمر بالجبال مسبحاً وهي تجاوبهُ. وقيل: كانت تسيرُ وتسبح؟ قلتُ: بأن يخلقُ الله فيها الكلام كما خلقهُ في الشجر حيث كلم موسى(٢٤) ونظيره قوله تعالى: "وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ "(النور:٤٥).

تشتمل هذه الآية الكريمة على آياتٍ باهراتٍ تبين بديع قدرة الله سبحانه وتعالى وتبيان غرابة مخلوقاته وعجائب صنائعه حيث يبرهن الزمخشري جدلية هذه الفنقله على غيرها قائلاً: فإن قلت: لمَ جاءت الأجناسُ الثلاثةُ على هذا الترتيب؟ قلتُ: قدمَ ما هو أعرقُ القدرة وهو الماشي بغير آلة مشي من أرجل أو قوائم، ثم الماشي على رجلين، ثم الماشي على اربع(٢٥).

لا يخفى في هذا المساق القرآني أن آلية التقديم كانت لما هو أعرقُ في القدرة، وهو الماشي بغير آلة من أرجل أو قوائم لن فيه صعوبة ومشقة،ثم قدم الماشي على الرجلين كونه أقل استقراراً وتمركزاً على الماشي على أربع كون ذلك ادل وادخل في القدرة الربانية(٢٦).

ولا يأتي التقديم بالمنزلة إلا لغرض

مقصود من ذلك قوله تعالى:"إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالصَّابِؤُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ "(المائدة:٦٩).

يقول الزمخشري وفق قانون الفنقلة: فإن قُلت: ما التقديم والتأخير إلا لفائدة فما فائدة هذا التقديم ؟ قلتُ: فائدته التنبيه على أن الصابئين يُقارب عليهم إن صح منهم الإيماءُ العمل الصالح، فما الظن بغيرهم، وذلك أن الصابئين أبين هؤلاء المعدودين ضلالاً وأشدهم غياً،وما سموا صابئين إلا لانهم صبئوا عن الاديان كُلها، أي خرجوا(٢٧).

ولما كانت الانزياحات الأسلوبية تعكس مدى المرونة والحركة داخل السياق اللغوي وتدل على تمكن المتكلم من ناحية القول فلا غرو أن تجد ثناءً عالياً وتقديراً لهذا الاسلوب عند عبد القاهر الجرجاني الذي تأثر به صاحب الكشاف الى حد كبير، إذ يقول مُكبراً أسلوب الانزياح او التقديم والتأخير: "هذا باب كثير الفوائد،جمٌ المحاسن، واسع التصرف،بعيد الغاية،لايزالُ يفتر لك عن بديعة، ويفضي بك الى لطيفه،ولاتزال ترى شعراً يروقك مسمعهُ، ويلطف لديك موقعه ثم تنظر، فتجد سبب أن راقكَ ولطف عنك، أن قدم فيه شيء، وحول اللفظ عن مكان الى مكان(٢٨).

ولو تتبعنا موطن اللطف والحسن الذي تثيره تبادل الرتب الموضعية بين الألفاظ لوجدناه يعود الى احتفاظ المفردات بدلالتها واكتسابها دلالات جديدة يعود منشؤها الى السياق البلاغي برمته.

قال تعالى: "إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ "(الغاشيه: ٢٥ – ٢٦).

وفق آلية الفنقلة يجادل الزمخشري: فإن قُلت: ما معنى تقديم الظرف ؟ قلتُ: معناه التشديد في الوعيد، وأن إيابهم ليس، الى الجبار المقتدر على الانتقام، وإن حسابهم ليس بواجب إلا علية، وهو الذي يحاسبُ على الفقير والقمطير(٢٩).

وتتجلى براعة الزمخشري حينما يتساءل عن سبب تقديم (الزّانية على الزّاني) في سياق وتقديمه عليها في سياق آخر في قوله تعالى: "الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ "(النور:٣).

يقول محاوراً نفسه: فإن قُلت: كيف قُدمت الزّانية على الزّاني أولاً، ثم قُدم عليها ثانياً؟ قُلتُ: سيقت تلك الآية لعقوبتهما على ما جنيا، والمرأةُ هي المادة التي منها نشأت الجناية، لأنها لو لم تطمع الرجل ولم تومض له ولم تمكنه لم يطمع ولم يتمكن. فلما كانت أصلاً وأولاً في ذلك بدأ بذكرها. وأما الثانية فمسوقةٌ لذكر النكاح والرجل أصلاً فيه،لأنه هو الراغب والخاطب، ومنهُ يبدأ الطلب(٣٠).

ومما له صله بهذا المساق قوله تعالى: "وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا "(النور:٣١).

فإن قلت: لمَ قدَّم غضَّ الابصار على حفظ الفروج ؟ قلتُ: لأن النظر بريدُ الزنى ورائد الفجور، والبلوى فيه أشد، ولا يكاد يقدر على الاحتراس منه(٣١). أن تقديم المرأة على الرجل ثم عكسه لم يكن نوعاً من الفوضى اللغوية ولم يك للعناية أو الاهتمام(٣٢) فقط و أنما لغاية معنوية تتمثل في أن الفعل الشائن (الزّاني) كان أقرب للمرأة لوجود المثيرات من الصفات ولقربه منها(٣٣) بينما يتقدم الرجل في السياق الثاني كون النكاح أقرب له منها.

المبحث الثاني
الحجاج و الفنقلة

إن هذا المبحث عبارة عن محاولة لاستجلاء المظهر الحجاجي عند الزمخشري لاسيما (الحجاج الذاتي) إن جاز لنا تسميته حيث يلجأ الزمخشري الى آلية الحوار الذاتي أو ما يُسمى بالمونولوج الداخلي (١) حيث يفترض شخصية معينة يقوم بطرح تساؤله المشهور: فإن قُلتَ: لمَ قيل كذا قُلت: كذا،وهو ما أصطلح عليه بالفنقله.وقبل تحليل مواضع الحجاج التي أدت فيها الفنقله دوراً كبيراً لابد من الوقوف على ماهية الحجاج ودلالته.

فالحجاج لغة مأخوذ من المحاجه يُقال: حاجت فلاناً فحججتهُ أي غلبته بالحجة، وذلك الظفر يكون عند الخصومة(٣٤) وبينما يرى الزمخشري أن الحجاج مستقى من (حجج): أحتج على خصمه فحجة وفلان خصمه محجوج وكانت بينهم محاجة وملاجة(٣٥) بينما يراه أبن منظور. أنه المنافسه فيقول:حاجة حجاجاً نازعهُ الحجه(٣٦).

واصطلاحاً هو: ما دلَّ به على صحة الدعوى. وقيل الحجة والدليل واحد(٣٧) والحجاج هو الالية التي يستعمل المرسل اللغة فيها وتتجسد عبرها استراتيجية الاقناع(٣٨).

إذاً على المحاجج ان يمتلك وسيلة الاقناع لكي يتمكن من تحقيق الغلبة على الخصم، ولما كان الخصم غائبا كما هو

الحال في فنقلات الزمخشري فما هو الهدف من هذه المحاجات؟

إنَّ الهدف الأسمى من هذه المحاجات الذاتية أو الداخلية هو إثارة المتلقي للتفاعل مع أسلوبية الحجاج من جانب آخر يتعلق بطبيعة الفكر الاعتزالي وحياة الزمخشري نفسه إذْ روي أن الزمخشري كان ميالاً للعزلة والانطواء حيث الابتعاد عن الحياة الصاخبة واختيار العزلة عن المجتمع المكي انذاك(٣٩) هذا يدفعنا الى الاعتقاد بان الشخص اذا اعتمد على الانفراد في عيشته والانزواء في حياته فان ذاته تتحول مرآة له يحاكيها ويجادلها ويتخذها رفيقا وخصماً. وهذا ينطبق على الزمخشري حيث اتخذ نفسه خصماً محاججاً ولا وجود للخصم أو المحاجج في قوله (فان قلتَ: قلتُ).

الحجاج في الدلالات الثانوية :

من خلال تدقيقنا للنصوص المعتمدة على الفنقلة وجدنا استخداماً دلالياً عالياً عن صاحب الكشاف يُنبئ عن هيمنة الجانب الحجاجي على أفكاره لا سيما في الدلالات الثانوية التي يثيرها النص القرآني.

قال تعالى: ((إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ((آل عمران ٥٩).

تساءل الزمخشري محاججاً بالفنقلة (فان قلتَ: كيف شبَّهَ به وجد آدم من غير أب وأم ؟ قلتُ: هو مثيله في إحدى الطرفين، فلا يمنع اختصاصه دونه بالطرف الآخر من تشبيه به، لأن المماثلة مشاركة في بعض الأوصاف ولأنه شبه به في انه وجد وجوداً خارجاً عن العادة المستمرة، وهما في ذلك نظيران، ولأن الوجود من غير أب وأم اغرب. وأخّرت للمادة من الوجود بغير أب، فسبقه الغريب بالأغرب، ليكون أقطع للخصم وأحسم لمادة شبهته. اذا نظر فيما هو أغرب مما استغربه)(٤٠)

إنَّ الزمخشري في محاججته الذاتية يؤكد الآراء التي تذهب الى أن الشيئين في التشبيه ينبغي ان يشتركا ويتفقا في بعض الصفات لا كلهما حتى لا يكونَ الشيء كنفسه(٤١).

وبذلك يكون النبي عيسى (ع) مثله كمثل آدم (ع) في الخلق والتكوين لا المعجزة والرسالة.

وانتظاماً في آلية الحجاج الذاتي تتفق قريحة الزمخشري الدلالية ويتقد ذهنه الاعتزالي الجدلي يتساءل ثلاث عشرة مرة بقوله (فان قلت) وذلك في تفسيره لقوله تعالى: ((مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ × صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ)) (البقرة ١٧ – ١٨).

يقول: (فان قلت: فيمَ اشبهت حالهم بحال المستوقد ؟ قلت: في أنهم غب الاضاءة خبطوا في ظلمة وتورطوا في حيرة. فان قلتَ: وأين الإضاءةُ في حال المنافق ؟ وهل هو أبداً الا حائر خابط في ظلماء الكفر ؟ قلتُ: المراد ما استضاءوا به قليلا من الانتفاع بالكلمة المجراة على ألسنتهم، ووراء استضاءتهم بنور هذه الكلمة ظلمة النفاق التي ترمي بهم الى ظلمة سخط الله وظلمة العقاب السرمد. ويجوز أن يشبه بذهاب الله بنور المستوقد اطلاع الله على أسرارهم وما افتضحوا به بين المؤمنين واتسموا به من سمة النفاق... فان قلتَ: هل يُسمّى ما في الاية استعارة ؟ قلت: مختلف فيه والمحققون على تسميته تشبيها بليغا لا استعارة ؛ لأنَّ المستعار لَه مذكور وهم المنافقون. والاستعارة إنّما تُطلق حيث يطوى ذكر المستعار له، ويجعل الكلام خلواً عنه صالحاً لان يراد به المنقول عنه والمنقول اليه)(٤٢).

ولما كان التشبيهُ يقوم على المقاربة بين الأشياء فقد وظَّفهُ الزمخشري للحجاج حيث جعل موضوعه يدور حول الأمور التقريبية والمقبولة والمحتملة لا أمور المغالطة والالزام والتلاعب بعواطف السامع أو عقله(٤٣).

وقف مستفهماً إزاء قوله تعالى ((وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ)) (البقرة ١٨٧)

قال الزمخشري: (فان قلت : أهذا من باب الاستعارة أم من باب التشبيه ؟ قلت: قوله ((من الفجر)) أخرجه من باب الاستعارة كما أنَّ قولك: رأيت أسداً مجاز، فاذا زدتَ (من فلانٍ) رجع تشبيهاً. فان قلت: فلمَ زيدَ (من الفجر) حتى كان تشبيهاً. وهلا اقتصر به على الاستعارة التي هي أبلغ من التشبيه وأدخل في الفصاحة ؟ قلت: لان من شرط الاستعارة أن يدل عليه الحال والكلام، ولو لم يذكر (من الفجر) لم يعلم ان الخيطين مستعاران، فزيد (من الفجر) فكأن تشبيها بليغا وخرج من أن يكون استعارة(٤٤).

إن اسئلة الزمخشري وحجاجاته هي (عرقول أو مشكلة تتطلب حلاً، وحُّلها يكمن في الاجابة عنها إجابةً يُفهم منها ضمنيا أن ذلك العرقول أو تلك المشكلة موجودة بحيث لا يكون الملتقى في نهاية

المكان وهو يقرأ الحجج الصريحة أو الاجوبة في خطابٍ ما لا طارح اسئلة يستنتجها من خلال تلك الاجوبة المتقدمة في النص)(٤٥).

وهكذا يبرع الزمخشري في مخالطة محاجاته الذاتية بأسلوب الاقناع المعتمد على مفردات الدلالة والبلاغة حيث يستعمل الإبلاغ بوساطة الكلام الذي استمال الى منهج متميز ومنصف بمجموعة من القواعد، هذه القواعد ليست مرصوفة بطريقة تعسفية بل ربط بينها من زوايا نظر قائمة على اساس منطقي(٤٦).

ويستمر على هذا المنوال مفتشا في قوله تعالى ((إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ(٢٦) الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)) (البقرة ٢٦ – ٢٧)

لقد وقف صاحب الكشاف إزاءَ هذا النصّ موقفَ المحاور اللّامع قائلا: (سقيت هذه الاية البيان ما استنكره الجهلة وأهل العناد والمراء من الكفار واستغربوه من ان تكون المحقّرات من الأشياء مضروب بها المثل، وليس بموضع الاستنكار والاستغراب، من قبل أن التمثيل إنّما يصار اليه لما فيه من كشف المعنى ورفع الحجاب عن الفرض المطلوب وإدناء المتوهم من المشاور، فان كان التمثيل له عظيماً كان المتمثّل به مثله وإن كان حقيراً كان المتمثّلُ به كذلك فليس العظيم والحقارة في المضروب به المثل اذاً إلا امراً تستدعيه حال المتمثل له وتستجره الى نفسها فيعمل الضارب للمثل على حسب تلك القضية ألا ترى الى الحق لما كان واضحاً جلياً أبلج، كيف تمثل له بالضياء والنور ؟ وإلى الباطل لما كان بضدَّ صفته، كيف تمثّلَ له بالظلمة)(٤٧).

ثم بقوله: (فان قلت: من أين ساغ النقص في إبطال العهد ؟ قلت: من حيث تسميتهم العهد بالجبل على سبيل الاستعارة لِمَا فيه من ثبات الوصلة بين المتعاهدين... وهذا من أسرار البلاغة ولطائفها أن يسكتوا عن ذكر الشيء المستعار، ثم يرمزوا اليه بذكر شيء من روادفه، فينتبهوا بتلك الرمزة على مكانه، ونحوه قولك: شجاع يفترس أقرانه، وعالم يغترف منه الناس، واذا تزوجت امرأة ما فاستوثرها. لم تقل هذا الا وقد نبهت على الشجاع الحاكم بانها اسد وبحر، وعلى المرأة بأنها فراش... فان قلت: فما المراد بعهد الله ؟ قلت: ما ركز في عقولهم من الحجة على التوحيد كانه امر وصاهم به ووثقه عليهم)(٤٨).

لا يخفى في هذه التحليلات التي اعتمدت على منطق الحجاج الذاتي أو الداخلي انها قامت على عنصر الافتراض حيث افترض الاسئلة وكذا اجوبتها وهذا يقع في صميم قضية الحجاج حيث تقوم (كل الاقوال في العمليات التخاطبية على مبدأ الافتراض المؤسس على الجواب والسؤال المفترضين، انطلاقا من مجموعة من المقومات التي تحكم العمليات التواصلية، كالسياق والمعلومات الموسوعية... اذ يصبح كل قول (خبراً، انشاءً، سؤالاً، تعجباً أمراً، نهياً) افتراضاً لشيء ما داخل سياق تخاطبي معين، أي جواباً عن سؤالٍ سابق وسؤالاً لجوابٍ لاحق)(٤٩).

وجدير بالاشارة الى أن الحجة والبرهنة اتخذها الزمخشري منطلقا أساسياً في رسم استراتيجية الحجاج الذاتي عنده بل حسرها وسيلة دلالية يدعم بها مواقفه النقدية والتحليلية التي كشف بها عن جماليات النص القرآني، وغلب بها محاورة المفترض في جملته الشهيرة: (فان قلت: قلت: انعم النظر في تبيانه لموطن الدلالات الثانوية على طريقة الحجاج في قوله تعالى: ((أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ)) (البقرة ١٦)

اذ يقول: فان قلت: كيف أسند الخسران الى التجارة وهو لأصحابها ؟ قلت: هو من الإسناد المجازي، وهو أن يسند الفعل الى شيء يلتبس بالذي هو في الحقيقة له كما تلبست التجارة بالمشترين، فان قلتَ: هل يصحُّ: ربح عبدك وخسرت جارتك، على الإسناد المجازي؟ قلت: قلت نعم اذا دلت الحال وكذلك الشرط في صحة: رأيت اسداً، وانت تريد المقدام، ان لم تقم حال دالة لم يصح. فان قلت: هَبْ ان شراء الضلالة بالهدى وقع مجازا في معنى الاستبدال، فما معنى ذكر الربح والتجارة ؟ قلت: هذا من الصفة البديعة التي تبلغ بالمجاز الذروة العليا، هو ان تساق كلمة مساق المجاز، ثم تقتضي باشكال لها وأخوات، اذا تلاحقن لم ترد كلا ما احسن منه ديباجة واكثر ماءً ورونقاً وهو المجاز المرشح(٥٠). الذي روعي فيه تعزيزه وترشيحه بلفظتي الربح والتجارة(٥١).

ان هذه الرؤية الحجاجية استندت الى النظم القرآني كاملاً، وارتكزت على

العلاقات المتواشجة بين الألفاظ فكانت البنية التركيبية ترجمة لمجموعة من العلاقات بين عناصر مختلفة استطاع الزمخشري فيها أن يحدد خصائص المجموعة والعلاقات القائمة فيما بينها بوجه نظر معتزلي محاجج ومحاور غير مسلم ومع هذا فكنت تلاحظ اجتماع العناصر في ابنية تخضع لنظام موحد وهذا مردُّهُ الى أبنية الى تمييز بتماسك العلاقات وانتظامها بالتواصل بين العناصر المختلفة والتي تكون علاقاتها المتشابكة عمادا للتحليل البنائي(٥٢).

واذا كانت الحجة دامغة في أن التجارة لا تربح وإنما يمارسها على سبيل المجاز ومرشحاته، فان الجرف والانهيار لا وجود لهما على سبيل الحقيقة وفق الفنقلة المبنية على الحجاج. قال تعالى: ((أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)) (التوبة ١٠٩)

يقول مستنهضاً همّةَ خصمه: (فان قلت: ما معنى قوله ((فانهار به في نار جهنم))؟ قلت: لما جعل الجرف الهائر مجازا عن الباطل قيل: فانهار به في نار جهنم، على معنى فطاح به الباطل في نار جهنم الا أنه رشَّحَ المجاز فجيء بلفظ الانهيار الذي هو للجرف، وليصور أن المبطل كأنهُ أسَّس بنيانا على شفا جرف من أودية جهنم فانهار به ذلك الجرف فهوى في قعرها. والشفا الحرف والشفير. وجرف الوادي: جانبه الذي يتحفّر اصله بالماء وتجرفه السيول فيبقى واهيا. والهار: الهائر وهو المتصدع الذي اشفى على التهدم والسقوط. ولا ترى ابلغ من هذا الكلام ولا ادل على حقيقة الباطل وكنه أمره(٥٣).

الخاتمة

بعد هذه المرحلة البحثية مع الزمخشري وكشافه لا بد من الوقوف عل أهم النتائج التي توصل اليها البحث وهي:

١. لقد كانت (الفنقلة) ظاهرة إيجابية في تفسير الكشاف للزمخشري وكانت سببا احتثَّ فينا آلية البحث والتقصي والتحقيق.

٢. ان تساؤلات الزمخشري أفضت الى مادة علمية نقدية ولم يكن قوله: (فان قلت: قلت) او (لمَ قلت: قلت) جملة تشكل قولاً عبثيا أو تركيبا اعتباطيا، وانما هي إثارات لعلم الدلالة والبلاغة واللغة جعلته يغوص في اللفظة ويوازنها مع قريباتها في المعنى حتى ينتصر بها وبدلالتها للشكل الذي وردت فيه بالهيئة الماثلة في النص القرآني.

٣. لم تكن الانزياحات الدلالية التي توقف عندها الزمخشري ضربا من البحث اللغوي أو تلاعبا في رتب الالفاظ وانما سقيت وفق مبدأ النظم وعقدت بناءً على آلية السياق الموحد حتى استمالت الى كلٍّ متماسك عصيّ على التجزئة والتفريط.

٤. وجدت ان الزمخشري كان رائدا في ما اصطلحت عليه بـ (الحجاج الذاتي) حيث إنَّ تساؤلاته الدلالية تنمى الى طريقة الحجاج التي تميز بها أصحاب الاعتزال اذ خلق لاسلوبه عالما دلاليا خاصاً وإطاراً حوارياً مميزاً. اذ لا شخصيةَ تحاورهُ وإنما هو الخصم والحكم مستندا بذلك الى ثقافته الواسعة وعلمه المتعدد.

٥. تَبَدّى لنا من خلال البحث أن الدلالة على مستوى المفردات والبلاغة والبيان كانت مادةً للفنقلة، والفنقلة سطورٌ للحِجاج وكلاهما نهض بالحسّ الدلالي والذائقة الحجاجية لدى صاحب الكشاف.

الهوامش

١. يُنظر دلائل الاعجاز – عبد القادر الجرجاني ص٣٥-٤٥
٢. الكشاف – الزمخشري جـ٤/ ص١٣٩١
٣. الطراز – العلوي جـ٣/ ٢٢٤-٢٢٥
٤. الكشاف ٢/٦٦٢
٥. يُنظر دلائل الاعجاز – ٤٥
٦. الكشاف جـ٤/ ١٣٩٩
٧. يُنظر تحرير التحبير – ابن ابي الاصبع المصري – ص٥٧٧
٨. يُنظر معاني الابنية العربية ص١٥ والتعبير القراني ص٢٤ للدكتور فاضل السمرائي
٩. الكشاف ٣/٩٧٧
١٠. يُنظر الصحاح – الجوهر – مادة (سَكَر). ولسان العرب – ابن منظور (سكر)
١١. الكشاف ٣/٩٥
١٢. المصدر نفسه ٢/٨٥٥
١٣. المصدر نفسة ٢/٦٦٣
١٤. بيان اعجاز القرآن – الخطابي – ص٢٦
١٥. يُنظر مواد البيان – الكاتب ص١٤٩
١٦. يُنظر المجاز واثره في الدرس اللغوي - محمد بدري – ص٥٠
١٧. الكشاف ٣/١٠٠٢
١٨. المصدر نفسه ٣/١٢١٧
١٩. قوادم الطير: مقاديم ريشة وهي عشر ريشات في كل جناح والخوافي ما دون الريشات العشر من مقدم الجناح. ينظر لسان العرب مادة (قدم) والكشاف جـ٤/١٦٦٨-١٦٦٩
٢٠. الكشاف ٤/١٣٤٨
٢١. المصدر نفسه ٣/١٠٨١
٢٢. يُنظر شعرية القصيدة (قصيدة القراءة) عبد الملك مرتاض - ص٥٥
٢٣. إشارة الى النبي الأكرم محمد (صلى الله عليه واله وسلم)
٢٤. الكشاف ٣/٩٦٨
٢٥. المصدر نفسة ٣/١٠٤٦
٢٦. يُنظر المثل السائر – ابن الاثير ٢/٣٣٢
٢٧. الكشاف ٢/٣٩٣
٢٨. دلائل الاعجاز ص١٠٦
٢٩. الكشاف ٤/١٧٨٠
٣٠. المصدر نفسه ٣/١٠٢٤
٣١. الكشاف جـ٣/١٠٣٦
٣٢. يُنظر الكتاب – سيبويه ١/٨١
٣٣. يُنظر انوار التنزيل – القاضي البيضاوي ص٤٦٢

٣٤. مقاييس اللغة – ابن فارس ١/٢٧٩ مادة (حجيج)

٣٥. أساس البلاغة – الزمخشري – ص١٦٩ مادة (حجيج)

٣٦. لسان العرب – ابن منظور ١/٧٤٦ (مادة حجيج)

٣٧. كتاب التعريفات – الشريف الجرجاني ص٦٧

٣٨. استراتيجيات الخطاب عبد الهادي الشهري ص٤٥٦

٣٩. يُنظر الزمخشري نحويا ومفسرا – مرتضى اية الله زادة الشيرازي ص٢٢٥

٤٠. الكشاف ١/٢٢٠

٤١. يُنظر أسرار البلاغة – عبد القاهر الجرجاني – تحقيق هـ ريتر ص٨٩ ونقد الشعر – قدامة بن جعفر البغدادي ص١٠٩ وسر الفصاحة – ابن سنان الخافجي ص٢٩٠

٤٢. الكشاف ١/٤٨

٤٣. يُنظر حجاجية الصورة في الخطابة السياسية لدى الامام علي (رض) – كمال الزماني ص١١٧

٤٤. الكشاف ١/١٤١

٤٥. الحجاج في القرآن من خلال أهمّ خصائصه الأسلوبية – د.عبدالله صولة ص٣٩

٤٦. يُنظر البلاغة الأسلوبية نموذج سينمائي لتحليل النص – د. محمد العمري ص٢٣

٤٧. الكشاف ١/٦٧ – ٦٨

٤٨. المصدر نفسه ١/٧٣

٤٩. عندما نتواصل نغيّر – مقاربة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج – د.عبد السلام عشير ص٩٦

٥٠. الكشاف ١/٤٤

٥١. يُنظر البرهان في علوم القران – الزركشي ٣/٤٣٨

٥٢. يُنظر النظرية البنائية في النقد الأدبي – د. صلاح فضل ص١٧٧ – ١٧٨

٥٣. الكشاف ٢/٦٠٧

المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم

٢. أساس البلاغة – الزمخشري (جار الله)، تحقيق باسل عيّون السود، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، لبنان – ١٩٩٨.

٣. استراتيجيات الخطاب، مقاربة تداولية، عبد الهادي بن ظافر الشهري، دار الكتاب الجديد، بيروت، لبنان – ٢٠٠٤.

٤. أسرار البلاغة، عبد القادر الجرجاني، تحقيق هـ. ريتر، دار الكتاب العربي، القاهرة (د.ت).

٥. أنوار التنزيل، القاضي البيضاوي، المطبعة العثمانية، مصر – ١٣٠٥هـ.

٦. البرهان في علوم القرآن – الزركشي (بدر الدين محمد بن عبد الله ت ٧٩٤هـ)، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم، مكتبة دار التراث، القاهرة – (د.ت).

٧. البلاغة والأسلوبية (نموذج سيميائي لتحليل النص)، محمد العمري، دار افريقيا الشرق، المغرب – ١٩٩٩.

٨. بيان إعجاز القران – الخطابي (محمد بن محمد بن ابراهيم) (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القران)، تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سّلام، دار المعارف، مصر، (د.ت).

٩. (تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان اعجاز القرآن)، ابن أبي الاصبع المصري، تحقيق حنفي محمد شرف، مطابع شركة الاعلانات الشرقية، القاهرة – ١٣٨٣هـ.

١٠. التعبير القراني، د. فاضل صالح السامرائي، بغداد، العراق – ١٩٨٩.
١١. التعريفات، الشريف الجرجاني (علي بن محمد ت ٨١٦هـ)، تحقيق عبد المنعم الحفني دار الرشاد، القاهرة، (د.ت).
١٢. تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الاقاويل في وجوه التأويل – الزمخشري، ترتيب وضبط مصطفى حسين أحمد، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان – ١٩٤٧.
١٣. الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، د. عبدالله صولة، دار الفارابي، ط ٢، بيروت، لبنان – ٢٠٠٧.
١٤. حجاجية الصورة في الخطابة السياسية لدى الامام علي (رض)، كمال الزماني، دار عالم الكتب الحديثة، ط١، أربد، الاردن – ٢٠١٢.
١٥. دلائل الاعجاز، عبد القاهر الجرجاني ت٤٧١هـ، تحقيق محمود احمد شاكر، مطبعة المدني، ط٤، القاهرة – ١٩٩٢.
١٦. الزمخشري لغوياً ومفسراً، مرتضى اية الله زادة الشيرازي، تقديم د. حسين نصار، دار الثقافة، القاهرة – ١٩٧٧.
١٧. سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، تحقيق عبد المتعال الصعيدي، مطبعة محمد علي صبيح وأولاده، القاهرة، مصر، (د.ت).
١٨. شعرية القصيدة (قصيدة القراءة)، عبد الملك مرتاض، ط١، بيروت – ١٩٩٤.
١٩. الصّحاح، الجوهري (اسماعيل بن حماد ت٣٩٨هـ)، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، (د.ت).
٢٠. الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الاعجاز، العلوي (يحيى بن حمزة ت ٧٩٤هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت – ١٩٨٢.
٢١. عندما نتواصل نغيّر (مقاربة تداولية معرفية لأليات التواصل والحجاج)، د.عبد السلام عشير، افريقيا الشرق، المغرب – ٢٠٠٦.
٢٢. كتاب سيبويه (ابو بشر عمر بن عثمان ت١٨٠هـ)، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجبل، ط١، بيروت، لبنان، (د.ت).
٢٣. لسان العرب، ابن منظور (ابو الفضل جمال الدين بن مكرم الافريقي ت٧١١هـ)، دار صادر، ط٣، بيروت – ١٩٩٤.
٢٤. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ابن الأثير (ضياء الدين نصر الله بن محمد ت ٦٣٧هـ)، تحقيق د. احمد الحوفي ود. بدوي طبانة، مطبعة نهضة مصر، ط١، القاهرة – ١٩٥٩.
٢٥. المجاز وأثره في الدرس اللغوي، محمد بدري عبد الجليل، دار النهضة العربية، بيروت – ١٩٨١.
٢٦. معاني الأبنية العربية، د.فاضل صالح السامرائي، الشركة المتحدة للتوزيع، ط١، بيروت – ١٩٨١.
٢٧. معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكريا الرازي، دار الكتب العلمية، ط٣، بيروت، لبنان – ١٩٩٨.
٢٨. مواد البيان، علي بن خلف الكاتب ت٤١٠هـ، تحقيق حسين عبد اللطيف، منشورات جامعة الفاتح، طرابلس – ١٩٨٤.
٢٩. النظرية البنائية في النقد الأدبي، د. صلاح فضل، مطبعة دار الشؤون الثقافية، ط٣، بغداد – ١٩٨٧.